من وجوه الخلاف الكوفي للنحو البصري

د. عبد القادر عبد الرحمن السعدي
كلية العلوم والآداب – جامعة الشارقة

فكرة البحث

ظهرت على الساحة النحوية مدرستان نحويتان كانتا الأساسين للمذاهب النحوية من بعدهما ، وهما مدرسة البصرة والكوفة ، وقد أقامت كل مدرسة فروعها النحوية على أسس وأصول قد تتفق في بعضها مع الاخرى و قد تختلف، وهذا البحث يكشف عن بعض الجوانب التى سار عليها الكوفيون في خلافهم مع البصريين من حيث الأصول والفروع.

الحمد لله ، وَالصَّلاَة والسلام عَلَى سيدنا مُحَمَّد رسول الله ، وَعَلَى آله وأصحابه وَمَنْ والاه .

أما بَعْدُ :

فقد استهوت الكوفة قلوب كَثِير مِنْ العرب وَغَيرهِم ، فشرعوا ينسابون إليها مهاجرين لسكناها ((لأنها تجمع بين طبيعة الحضر وطبيعة البدوِ ، وَتصلح أن تكون متحولا مِنَ الحياة البدوية الخالصة إلى الحياة المدنية الناعمة .... فقد كانت محلاً لتبادل البضائع بين الفرس مِنْ جهة وأصحاب الإبل مِنْ جهة أخرى ، وللاتصال بين الجماعات العربية المنتشرة في البادية ، وأهل القرى مِنَ الآراميين الذين سكنوا هَذِهِ المنطقة قديما)) [1]. وكان أول الوافدين إليها هم العرب الأقحاح الذين نزحوا إليها مِنْ مناطق شتى مِن الجزيرة العربية، وكان عرب الجنوب مِنْ أكثرهم نزوحاً إليها ((فَنَزَلَتْ القبائل اليمنية في شرقيها ، والعدنانية في غربيها)) [2] .

وَقَدْ نقل ياقوت عَنْ الشعبي قوله : " كنا نعد أهل اليمن إثني عشر ألفاً ، وكانت نزار ثمانية الآف "[3] ، فهم يشكلون بمجموعهم عشرين ألفاً ، وَتِلكَ نسبةٌ عالية إذا ما قورنت بالآخرين .

وسكن إلى جانب العرب في الكوفة أناس مِنْ قوميات أخرى احتاجت الكوفة إلى خبراتهم في تحضرها ، أو احتاجوا هم إلى الاستقرار والعمل فِيهَا[4] ، فهي مصر ابتدأ نماء حضارياً جديداً ، فَلابد للتوفيق فِيهِ بين الحضارة والبداوة مِنْ مزيج مِن الحرف والمهن والخبرات التي تدليِّ بدلوها في تقدم حضارة هَذَا البلد الفتي ، فَكَانَ إلى جانب العرب الفرس الذين وجدوا في الإسلام خير دين يجمع الأمة بَعْد أن رأوا هزيمة رستم عَلَى يد سعد ، والسريان الذين كانت لَهُم ديارات قائمة ((في أطراف النجف والحيـرة

[1] مدرسة الكوفة مهدي المخزومي ١- ٤ .
[2] العصر الإسلامي ، شوقي ضيف ١٥٣ .
[3] معجم البلدان ياقوت الحموي ٤٩٢/٤ .
[4] مدرسة الكوفة /٧ .

ممن أصبحت لَهُم صلات بالمجتمع الكوفي)) [٥]، والنبط الذين شهد وادي الرافدين كثيرا مِنْهُمْ ، وعناصر أخرى مِن اليهود والنصارى الذين وفدوا إليها ((بَعْد تمصيرها مِنْ نجران اليمن وأقاموا في الكوفة في محلة نسبت إليهم وهي النجرانية)) .[٦]

وَقَدْ كَانَ تمصير الكوفة بَعْد إنشاء البَصْرَة بنحو سنتين ، وَمَعَ أن البَصْرَة كانت تحتل موقعاً جغرافياً مهماً – إذ تقع عَلَى ملتقى الطرق التجارية بين الجهات الأربع – إلا أن الكوفة ظلت محط أنظار العرب ، وإليها تتجه وجوههم ، فقد يممها فريق مِنْ قادة القبائل العربية مِنْ أولي الشأن والمكانة بين العرب .

ويروي الدكتور مهدي المخزومي عَن ابن الفقيه : أنَّ الكوفة قَدْ ((نزلت فِيها البيوتات العربية الأربعة : آل ذي الجدين الشيبانيون ، وآل قيس الزبيدون))[٧] .

وفي الصدر الأول للإسلام كانت قاعدة عسكرية تنطلق مِنْهَا الجيوش الفاتحة ، ولاسيما ما كان يتعلق بفتوح بلاد فارس .

ولإيوائها جمعاً غفيراً مِن الجنود الفاتحين ، أطلق عَلَيهَا اسم : ((كوفة الجند)) ، وَعَلَى هَذَا يَقُول عبدة بن الطيب :

إنَّ التي وضعت بيتاً مهاجرة بكوفة الجند غالت ودها غول [٨]

وسمَّاها الإمام عَلي (رضي الله عنه): سيف الله ورمحه فَقَالَ : ((الكوفة كنز الايمان ، وحجة الإسلام ، وسيف الله ورمحه يضعه حَيْثُ شاء)) [٩] . وَقَدْ اتخذها عاصمة الخلافة حين عهدت إليه .

ووقوعها هَذَا الموقع ، وامتلاكها هَذِهِ المكانة ، سبب ميول قلوب كَثِير مِنْ العُلَمَاء ، فوفدوا آمين صوبها مِنْ كل حدب وصوب ، واجتمع فِيهَا عدد كبير مِن الصَّحَابَة (رضي الله عنهم)، فَكَانَ ذَلِكَ سببا في نمو الحركة الفكرية ، والحياة العلمية فِيهَا ، إذ تشكلت المدارس العلمية عَلَى اختلاف اتجاهاتها ، فهناك مدرسة القراءات القرآنية ومدرسة الفِقه والمدرسة النحوية واللغوية ، وكان لكل مدرسة رجالها الذين برزوا فِيهَا، وأبدعوا أيَّما إبداع ، والذي يعنينا فِي بحثنا هَذَا المدرسة النحوية الَّتِي نهضت نداً للمدرسة النحوية البصرية ، وكان توجه الكوفيين فِيهَا نَحْوَ مخالفة البصريين فِي المسائل النحوية كَيْ يكون لَهُم شأن خاص في هَذَا الاتجاه ، بَعْد أن شعروا بالتأخر عَن البصريين في ذَلِك .

وسأتحدث عَنْ أبرز ملامح الخلاف الكوفي للنحو البصري في مجال الأصول التي اعتمدت لديهم مستشهداً ببعض المسائل النحوية التي ساقها النحاة في كتبهم دالة عَلَى ذَلِكَ الخلاف . وَقَدْ استدعت طبيعة البحث أن يكون مِنْ فصلين وخاتمة بَعْد هَذِهِ المقدمة .

وكان الفصل الأول للحديث عن المدرسة الكوفية أزاء المدرسة البصرية والفصل الثاني للحديث عن ملامح الخلاف الكوفي للنحو البصري والخاتمة لتلخيص أبرز وجوه الخلاف . وأسأل الله تعالى التوفيق والإخلاص والسداد.

---

[٥] المصدر نفسه /٨ .
[٦] المصدر نفسه /٩ .
[٧] مدرسة الكوفة /١٢ .
[٨] معجم البلدان ٤٩١/٤، ولم اعثر لِهَذَا البيت عَلَى مصدر سوى معجم البلدان .
[٩] المصدر نفسه ٤٩٢/٤ ، ونقله أيضاً د٠ المخزومي عَنْ ابن الفقيه في البلدان ص ١٦٣ .

الفصل الأول
المدرسة الكوفية إزاء المدرسة البصرية

تهيأت للمدرسة الكوفية النحوية ظروف طبيعية خدمتها ، ونفخت فِيهَا روح التقدم والنمو ، وَقَدْ تضافرت تلك الظروف حَتَّى جعلت مِنَ الكوفة مرتعاً للدراسات النحوية ، ومنهلا ترتشف مِنْهُ اللغة والأدب .

وأبرز تلك الظروف :

أ – مِنْ متممات التفكير العلمي توافر الجو المناسب لَهُ مِنْ حَيْثُ طبيعة الأرض ، وَقَدْ تحقق ذَلِكَ في الكوفة ، إذ إنها ذات موقع جغرافي بديع الحس مرهفاً ، والتفكير سليماً ، فهي تقع في السهل المنحصر بين الفرات شرقاً ، وبادية الشام غرباً ، وَفِي ذَلِكَ السهل يكثر النخيل المتراصف الذِي بِهِ سمي العراق (أرض السواد)، لأنَّ القادم مِنْ جهة الغرب يرى مِن بعيد أرضاً سوداء ، فإذا مَا اقترب مِنْ ذَلِكَ الموضع وجد هَذَا النخيل المتشابك المنتشر عَلَى ضفتي نهر الفرات . وَفِي ذَلِكَ السهل أيضاً (العشب)، وفيه الأزهار والرياحين الَّتِي يساعد عَلَى نموها أرض خصبة ، وأمطار غزيرة ، وجداول كثيرة تأتي بالماء مِنَ النهر إلى حَيْثُ الدساكر والديارات المبثوثة هنا وهناك في تلك البقعة الواسعة ، فإذا جاء الربيع بدت الأرض منقوشة بكل لون جميل وَقَدْ ساعد جمال المكان عَلَى صفاء النفس ورقة الحس وسمو الخيال [١٠] .

ووصف الكلبي موقعها الجميل هَذَا ، قائلاً فيما يرويه عَنْهُ ياقوت : ((قدم الحجاج بن يوسف عَلَى عَبْد الملك بن مروان ، ومعه أشراف العراقيين ، فلما دخلوا عَلَى عَبْد الملك بن مروان تذاكروا أمرَ الكوفة وَالبَصْرَة ، فَقَالَ مُحَمَّد بن عمير العطاردي :

الكوفة سفلت عَن الشام ووبائها ، وارتفعت عَن البَصْرَة وحرها ، فهي برية مريئة مريعة ، إذا أتتنا الشمال ذهبت مسيرة شهر عَلَى مثل رضراض الكافور وإذا هبت الجنوب جاءتنا ريح السواد وورده وياسمينه وأترنجه ، ماؤنا عذب ، وعيشنا خصب) [١١] .

ب – وقعت الكوفة عَلَى الحافة الشرقية لبادية الشام ، وَقَدْ كَانَ أهلها عَلَى اتصال دائم بالبدو الذين قطنوا تلك البادية ، وما من شك في أن المكوث بعض الزمن في البادية يولد لَدَى الإنسان عقلية متميزة ، نظراً لصفاء جوها، وخلوها مِنْ اللغط والهذر مِن الكلام، وحينئذ ينصرف الذهن إلى التفكير في النواحي العلمية الَّتِي يغذيها سماع اللفظ الخالص مِن اللكنة مِنْ أولئك البدو الذين سكنوا البادية .

ج – توافد العُلَمَاء إليها عامل مهم في نهضتها العلمية ، فقد هاجر إليها مَنْ لَهُ شأن في اللغة والقراءة ، وَهُوَ أمر مِنْ طبيعته أن تتمخض عَنْهُ حركة علمية تزدان بها البلاد .

وَمَن الثابت الَّذِي لا مراء فِيهِ أنَّ المذهب الكوفي النحوي قَدْ تأخرت نشأته عَن المذهب البصري بنحو مائة عام ، إذ كَانَ للبصرة فضل السبق إلى غرس جذور علم النحو ودراسة تفاصيله ، وَلاَ يعني ذَلِكَ أنَّ الكوفة كانت معدومة الجانب مِنْ هَذَا العلم ، بل كَانَ فِيهَا علماء كانت لَهُم إسهامات غَيْر قليلة الشأن في علم النحو عاشوا في الفترة الَّتِي انتعشت فِيهَا مدرسة البَصْرَة النحوية .

---

[١٠] مدرسة الكوفة لمهدي المخزومي / ٣ .

[١١] معجم البلدان ٤٩٢/٤ .

فَكَانَ هناك أبو جعفر الرؤاسي ، وحماد الراوية ، والمفضل الضبي ، إلا أنَّ هؤلاء وَغَيرهم مِن الكوفيين قَدْ اهتموا – بادئ أمرهم – برواية الشعر ، ودراسة أدب العرب ، فصرفوا لِذَلِكَ جل نشاطهم ، حَتَّى فاقوا البصريين في علمه بفضل الأوراق المطمورة مِنْ عهد النعمان بن المنذر[١٢]. فقد نقل ابن جنى عَنْ حماد الراوية الكوفي قوله :

((أمر النعمان فنسخت لَهُ أشعار العرب في الطنوج، قَالَ : وهي الكراريس ، ثُمَّ دفنها في قصره الأبيض ، فلما كَانَ المختار بن أَبى عُبَيْد ، قِيْلَ لَهُ : إنَّ تحت القصر كنزاً ، فاحتفره فأخرج تلك الأشعار ، فمن ثم أهل الكوفة أعلم بالشعر مِنْ أهل البَصْرَة) [١٣] .

ولم يكن وجود هَذِهِ الأوراق مِنْ أشعار العرب أول داع للكوفيين إلى الاشتغال بالشعر وروايته ، بل كانوا شغوفين بِهِ قَبْل ذَلِكَ ، ولم تزدهم تلك الأوراق إلا إقبالا عَلَيْهِ ، وتحمُّساً لَهُ ، لأنها صادفت هوى مِنْ أنفسهم . ويؤكد الشَّيْخ مُحَمَّد الطنطاوي هَذَا في كِتَابِه نشأة النحو فَيَقُوْل :

((ولقد كانوا قَبْل العثور عَلَى هَذِهِ الأوراق مسوقين إلى الشعر عَنْ رغبة ملحة ، وغزيرة فيهم متأصلة ، منذ حل العرب الكوفة ، يؤيد ذَلِكَ أن عليا كرم الله وجهه لما رجع بهم مِنْ قتال الخوارج عَلَى أن يستعدوا لقتال أهل الشام ، ثُمَّ تخاذلوا عَنْهُ ، لَمْ ير أبلغ في ذمهم مِنْ صفة التشاغل بالشعر،فقالَ حين خطبهم :

((إذا تركتكم عدتم إلى مجالسكم حلقاً عزين ، تضربون الأمثال وتناشدون الأشعار ، تربت أيديكم وَقَدْ نسيتم الحرب واستعدادها ، وأصبحت قلوبكم فارغة مِنْ ذكرها ، وشغلتموها بالأباطيل والأضاليل)) [١٤] .

وحين نَقُول : إنَّ الكوفيين تأخروا عَن البصريين في مذهبهم النحوي ، فإننا نعني أنَّ التأخُّر كَانَ في الدراسة المنهجية القائمة عَلَى الأصول ، وَعَلَى تقرير القواعد وتطبيقاتها . وإلا فقد كانت ملامح نحوية في الكوفة نستطيع أن نعدها الشرارة الأولى الَّتِي ألهبت جذوة النشاط النحوي فِيهَا ، وكانت متمثلة بوجود القرَّاء هناك ، وَمَا مِنْ شك في أنَّ القراءات القرآنية ، من أهم العوامل الَّتِي ولدت الدراسات النحوية عِنْدَ الكوفيين .

ومِنْ هؤلاء القرَّاء الذين كانوا في الكوفة: أبو عَبْد الرحمن السلمي الَّذِي توفي سنة ٧٤، وزر بن حبيش الأسدي المتوفى سنة ٨٢، وعاصم بن أبي النجود المتوفى سنة ١٢٧، ثُمَّ حمزة بن حبيب الزيات المتوفى سنة ١٥٦، الَّذِي أخذ عَنْهُ القراءة الكسائي فيما بَعْد [١٥].

وغموض تِلكَ الملامح النحوية في الكوفة لا يقوم دليلا قاطعا عَلَى انعدام أوليات النحو فِيهَا ، فمن المعروف أنَّ أولياتهِ كانت مسائل غامضة ، حَتَّى في البَصْرَة في عهدها الأول ، حَيْثُ كانت روايات متفرقة هنا وهناك ، ولم تأخذ طابعها المقنن إلا عَلَى يد الطبقة الأولى مِنْ علمائها مِنْ أمثال : الخليل ويونس بن حبيب وسيبويه . وَقَدْ أكد بروكلمان هَذَا حين قَالَ: ((وبقيت أوائل النحو والدراسات

[١٢] نشأة النحو/ مُحَمَّد طنطاوي ١٣٥ .
[١٣] الخصائص ٣٨٧/١ .
[١٤] نشأة النحو ١٣٦ .
[١٥] مدرسة الكوفة :٢٢-٢٤ .

العربية غامضة أيضا في الكوفة – حاضرة العراق الثانية – كَمَا هُوَ الحال في البَصْرَة ، فَلاَ نعلم اكثر مِنْ روايات وأخبار متفرقة)) [١٦].

وكان المذهب الكوفي في نشأته الأولى شديد الوثاق في ترابطه مَعَ المذهب البصري عَلَى أيدي رجالهما الأوائل مِنْ حَيْثُ التقعيد النحوي إلا أَنَّهُ مَعَ مرور الزمن أخذ يتطور ويأخذ شكلاً مستقلاً في القواعد ، وَفِي الاتجاهات التي في ضوئها تقرر تِلكَ القواعد ، وَفِي الأصول الَّتِي يعتمد عَلَيهَا في دراسة اللغة ، ومِن هنا ((نبغي أن يستقر في الأذهان أنَّ المدرسة الكوفية لا تباين المدرسة البصرية في الأركان العامة للنحو ، فقد بنت نحوها عَلى مَا أحكمته البَصْرَة مِنْ تِلكَ الأركان التي ظلت إلى اليوم راسخة في النحو العربي ، غَيْر أنها مَعَ اعتمادها لتلك الأركان استطاعت أنْ تشقَّ لنفسها مذهباً نحوياً جديداً لَهُ طوابعه وله أسسه ومبادؤه)) [١٧].

فالكوفيون بَعْد أن غطوا في سبات عميق صحوا مِنْ هَذِهِ الرقدة ، وأحسُّوا بتخلفهم مِنْ هَذِهِ الناحية ، فشمَّروا عَنْ ساعد الجدِّ ، وبدؤوا يحاكون البصريين في هذا الجانب ، إلاَّ أنهم شقَّ عليهم أن يكونوا تابعين لَهُم في دراستهم ((وأنفوا أن تنماع شخصيتهم في البصريين ، إن لَمْ يكن لَهُم نَحْوٌ خاص ، وبينهما مَا بينهما مِنْ دواغل وإحن ، دعاهم ذَلِكَ إلى تنظيم نحوهم عَلَى نمط خاص لا ينتحون فِيهِ اتجاه البصريين ، ولديهم في معتقدهم مِن الوسائل مَا يهيئ لَهُم نيل مأمولهم)) [١٨] .

وَمَا أنفة الكوفيين هَذِهِ إلا وجه مِنْ وجوه التنافس الَّذِي كَانَ قائما بينهم وبين أهل البصرة فمن الناحية الحزبية كانت ((علوية وَالبَصْرَة عثمانية ، وَمَنْ الناحية العنصرية فَأَكْثر أهل الكوفة مِنْ اليمانيين ، وأكثر أهل البَصْرَة مِنْ المضريين ، ومن الناحية العلمية فأهل الكوفة أصحاب فقه وحديث وقراءة ، وأهلُ البَصْـرَة أصحاب علوم وفلسفات)) [١٩] .

وإذا حققنا الترابط بين مذهبي البَصْرَة والكوفة ، نصل إلى أنَّ العُلَمَاء في دراساتهم اللغوية، اكتشفوا حقيقة لا مناص مِنْهَا هي أنَّ المذهب الكوفي تأثَّر بالمذهب البصري ، وكان هَذَا التأثُّر نتيجة تفاعل جرى بين المذهبين ، حَتَّى أصبح مِنْ نتائجه إقرار الأسبقية للبصريين في الدراسة النحوية ، ونود –هنا – أن نوجز أهم أسباب ذَلِكَ التفاعل :

١ – إن الاتصال كَانَ مستمرا بين البَصْرَة والكوفة ، ولم يخل وقت مِنْ أن يختلط فِيهِ أبناء الكوفة بأبناء البَصْرَة ، وأبناء البَصْرَة بأبناء الكوفة ((فلم يحدث شئ في البَصْرَة إلا وجدتَ صداه في الكوفة ، وَمَا عرف شئ في الكوفة إلاّ رأيتَ آثارهُ في البَصْرَة ، وكان الانتقال مِنْ مصر إلى مصر ميسراً للذين يرغبون فِيهِ ، وَرُبَّـمَـا اتخذ الكوفيون المغضوب عليهم مِنْ البَصْرَة مستقراً ، هرباً مِن السلطان واستتاراً مِنْ عيونه ، كَمَا فعل سُفْيَان الثَّوْريّ وغيره ، وَرُبَّـمَـا اتخذ البصريون مِنَ الكوفة مستقراً ومقاماً أيضا ، لأن الكوفة – فضلاً عَنْ أنها كانتَ مركزاً سياسياً للأمصار الشرقية فترة طويلة مِنَ الزمن – كانت مركز الفِقْه والحديث والقراءة ، ورواية الشعر والأدب ، فليس غريباً – إذن – أن تنتقل هَذِهِ الدراسة مِنَ البَصْرَة

[١٦] تأريخ الأدب العربي :١٩/٢ .
[١٧] المدارس النحوية ٠ شوقي ضيف ١٥٨ .
[١٨] نشأة النحو ١٣٤ .
[١٩] مدرسة الكوفة ٦٦ .

إلى الكوفة ، إما مع الذين شدُّوا الرحال مِنَ الكوفة إلى البَصْرَة طلباً للعلم ثُمَّ رجعوا إلى الكوفة ، وإما مَعَ الذين هاجروا مِنَ البَصْرَة ليتخذوا مِنَ الكوفة دارَ إقامة)) [٢٠] .

٢ – يرى الأقدمون مِن العُلَمَاء أن المذهب الكوفي ، إنما بدا عَلَى يد أَبي جعفر الرؤاسي ، وأبو جعفر هَذَا كَانَ تلميذا لأبي عَمْرو بن العلاء ، ولعيسى بن عمر ، وهما بالوقت نفسه أستاذا الخليل بن أحمد الَّذِي نمت عَلَى يديه المدرسة البصرية ، أيْ : إنَّ الرؤاسي قَدْ عاصرَ الخليل ، وأخذ عَن الشيوخ الذين أخذ الخليل عَنْهُم ، وإنَّ الخليل أفاد مِنْ نظرات الرؤاسي في كِتَابه الفيصل في النحو ، وحصلت بينهم مناظرات ومساجلات تركت لَهَا آثاراً في العلاقة بين المذهبين ، ثُمَّ جاء الكسائي الَّذِي عاصر سيبويه فأخذ عَن الخليل ، وألَّفَ سيبويه كتابَه ، وَقَدْ قِيْلَ : ((إنَّ سيبويه إذا ذكر في كِتَابه : الكوفي ، فإنما يعنى أباَ جعفر الرؤاسي)) [٢١] .

٣ – إنَّ البصريين – بَعْد سيبويه – قَدْ اعتمدوا كتابَه ، فأخذوا يحومون حوله شرحاً وتعليقاً واستدراكا ، فَكَانَ مادتهم الأساسية في هَذَا اللون مِنْ الدراسة ، والكوفيون لَمْ يغفلوا دراسة هَذَا الكتاب ، فقد نظروا إليه بنفس النظرة الَّتِي كَانَ ينظر فِيهَا البصريون إليه ، وقوَّموه نفس ذَلِكَ التقويم ، ولذلك انكبُّوا على دراسته والتعمق في أغواره ، فَكَانَ خيرَ أساس لَهُم في مدرستهم ، وَقَدْ ثبت أنَّ الكسائي درس الكتاب على يد الأخفش الأوسط ، قَالَ أبو الطيب اللغوَي :

أخبرنا جعفر بن مُحَمَّد ، قَالَ : اخبرنا أحْمَد بن غياث النحوي ، قَالَ :

((أخبرنا أبو نصر الباهلي ، قال: حمل الكسائي إلى أبي الحسن الأخفش خمسين ديناراً وقرأ عَلَيْهِ كِتَاب سيبويه سراً)) [٢٢] .

والفرّاء درسه أيضا ، وَقَدْ وجد تحت وسادته التي كَانَ يَجْلِس عَلَيهَا [٢٣].

الفصل الثاني

ملامح الخلاف الكوفي للنحو البصري

حرص رجال المدرسة الكوفية على أنَّ ينتهجوا لهم منهجاً خاصاً في دراسة النحو ، يميزها عن ندها ((المدرسة البصرية)) ، وكان لهم ما أرادوا ، فقد وصلنا النحو الكوفي متميزاً بطوابع خاصة تميزه عن النحو البصري .

ويتمثل ذلك التميز بمناحي شتى ، فمنها ما فرضه الموقع الجغرافي للكوفة، ومنها ما فرضته الهجرة إليها، ومنها ما فرضه التنافس والصراع الذي احتدم بين المدرستين، ونود هنا أنْ نوجز أبرز عوامل التميز :

-القراءات القرآنية :

اهتم المسلمون بخدمة القرآن الكريم، لأنه كتاب رب العالمين، ولأنه دستورهم ومنهجهم في الحياة، وقد تعددت أوجه تلك الخدمة، فانصرفت طائفة إلى خدمة متنه عن طريق الرواية، وهي طائفة القراء، وطائفة أخرى ألزمت نفسها بدراسة أحكامه واستنباطها من مدلول ألفاظه، وهم الفقهاء،

---

[٢٠] مدرسة الكوفة ٦٥ .
[٢١] تأريخ الآدب العربي ١٩٧/٢، المدارس النحوية ١٥٣ .
[٢٢] مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ١٢٠ .
[٢٣] مدرسة الكوفة ٦٩ .

وثالثة أجهدت نفسها بخدمته لغوياً، فأعربت نصه، وحللت أساليبه، ثم لم تقتصر على ذلك، بل راحت تعلل ذلك الإعراب، والأوجه المحتملة في قراءته، عن طريق رواية اللغة.

والدراسات النحوية وليدة ((التفكير في قراءة القرآن، لأن العلماء لم يفكروا ابتداء في دراسة علم يبحث عن علل التأليف، ولكنهم توصلوا إلى ذلك بعد أن نضجت الفكرة في أثناء قيامهم بعملهم القرآني، يؤيد هذا أن أوائل الدارسين من النحاة كانوا من القراء)) .[٢٤]

وقد كانت الكوفة ((أكبر مدرسة لقراءة القرآن، ومنها خرج ثلاثة من القراء السبعة، وهم: عاصم وحمزة والكسائي)) [٢٥] .

وكان لاتخاذ الكوفة عاصمة للخلافة الإسلامية أثر كبير في توافر أكبر قسط من القراء فيها، بل إنَّ الخليفة الرابع عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) كان أحد المقرئين للقرآن، وكذلك كان فيها عبدالله بن مسعود المبعوث من لدن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وزيراً لعمار بن ياسر الذي ولاه أمر الكوفة حينذاك، وعن عليّ وعن ابن مسعود أخذ أبو عبدالرحمن السلمي القراءة، وهو الذي تنتهي إليه رواية أكثر القراء فيها[٢٦].

ولما كانت القراءة القرآنية من العوامل المهمة في دراسة النحو، ولكثرة القراء في الكوفة، كانت هذه الناحية طابعاً مميزاً لنحو الكوفيين، ذلك لأن القراءات ((علم يعتمد على الرواية ، ويعتمد على التلقي والعرض، فلا يسمح لأحد أن يقرأ القرآن، أو يقرئه إلا بعد أن يتلقاه عن شيخ ثم يعرضه عليه حتى يجيزه، لأن القراءة علم أداء القرآن أداء معيناً، وهو لا يقوم على منطق أو اجتهاد أو تأويل ولكنه يتوقف أولاً وآخراً على الرواية ، والتلقي والعرض هما أصح طرق النقل اللغوي)) .[٢٧]

وحين نجعل الاهتمام بالقراءات مميزاً للمدرسة الكوفية فان ذلك لا يعني انعدام القراء في البصرة، فقد كان أوائل شيوخ المدرسة البصرية من القراء، من أمثال عبدالله بن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر، والخليل بن أحمد [٢٨]، ولكن هذه الظاهرة كانت في الكوفة أجلى منها في البصرة.

وقد كان الكوفيون أكثر اعتماداً على القراءات – متواترها وشاذها- من البصريين، وتوسعوا في قبولها ((لان التوسعة من سماتهم المنهجية)) [٢٩] فهم الذين يعتدون بالشاهد الواحد أو الشاذ أو النادر على المسألة النحوية، وهذا من أهم الأسباب التي جعلت المذهب الكوفي مذهباً وصفياً.

ولنضرب مثالاً للقراءة التي احترمها الكوفيون وعدّها البصريون ضعيفة أو غلطوا قارئها.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلادَهُمْ شُرَكَائِهِمْ ﴾ بإضافة ((قتل)) إلى ((شركائهم)) [٣٠] والفصل بين المضاف والمضاف إليه بـ((أولادهم)) . وهي قراءة لابن عامر .

وقد بنى الكوفيون على هذه القراءة جواز الفصل بين المتضايفين في حين رفض البصريون ذلك فلم يجيزوه ، إلا بالظرف أو الجار والمجرور حين الضرورة .

---

[٢٤] مدرسة الكوفة ٢٠ .
[٢٥] دروس في المذاهب النحوية – د. عبده الراجحي ٨٩ .
[٢٦] مدرسة الكوفة ٢١ .
[٢٧] دروس في المذاهب النحوية ٩٠ .
[٢٨] مدرسة الكوفة ٢٠ .
[٢٩] الكوفيون في النحو والصرف والمنهج الوصفي المعاصر، د. عبد الفتاح الحموز /٢٣ .
[٣٠] الآية ١٣٧ من سورة الأنعام .

ويؤيد رأي الكوفيين ما يأتي:-

١- قراءة بعض السلف قوله تعالى ﴿ فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدَه رُسُلِهِ﴾ [٣١] وتقديرها: فلا تحسبن الله مخلف رسلِهِ وعدَه .

٢- قول الشاعر

فزججتها بمزجة زج القلوص أبي مزاده

والتقدير: زجَّ أبي مزادة القلوصَ .

٣- ورد عن العرب أنها فصلت بغير الظرف والجار والمجرور إذ قالوا: ((هو غلامُ – إن شاء الله– أخيك)) [٣٢] .

وقد عدَّ الدكتور عبد الفتاح الحموز احتجاج الكوفيين بهذه القراءة على هذا الأصل النحوي منبئاً)) ((عن أنهم يحملون النص القرآني على ظاهره ولا يلجؤون إلى التأويل والتقدير اللذين مصدرهما الذهن والتخيل والتوهم)) [٣٣].

-الرواية والقياس:

البصريون: تحرجوا في قبول الروايات، فلا يقيمون قاعدة لمجرد مثال أو مثالين، بل لابد من بلوغ الرواية حداً يطمئن إليه من حيث الناقل لها، ومن حيث المنقول عنهم.

أما الكوفيون: فانهم توسعوا في الرواية ((وهذه التوسعة تعد من الأسس الرئيسة التي يقوم عليها المنهج الوصفي المعاصر، لأن رواده وأنصاره يدعون إلى وضع القواعد والأصول قياساً على اللغة المستخدمة بمستوياتها المختلفة لا التقيد بقواعد وأصول ذهنية)) [٣٤]،واستتبع هذا توسعهم في القياس، فكانوا يعتمدون المثال الواحد ليجعلوه ((ظاهرة عامة بحيث تستخرج منه القاعدة التي تكون صالحة للاستعمال)) [٣٥] .

وكان ذلك بدءا لخلاف واسع بين المدرستين، فالبصرة تتشدد في فصاحة العربي الذي تأخذ عنه اللغة والشعر، والكوفة تتساهل فتأخذ عن الأعراب الذين قطنوا حواضر العراق [٣٦] .

ونخلص من هذا إلى أنه إذا كان اليوم من ينادي بضرورة سلوك منهج النحو الوصفي، فإن هذا المنهج قد سلكه الكوفيون من قبل وكانوا ((رواداً في هذا المنهج، وإن قصب السبق بأيديهم فيه)) [٣٧]، فتوسعهم في قبول الرواية، دليل على أنهم يقيمون نحوهم على الوصف لكلام العرب، ولو كان بمثال واحد ورد عنهم، وهم بذلك جعلوا أنفسهم في حل من الاصطدام بالتأويل الفعلي والحكم بالشذوذ الذي اضطر إليه البصريون، وقد ضرب الدكتور عبده الراجحي مثالاً لهذا ، حيث ذكر: أن البصريين قد قرروا أن الفاعل لا يمكن أن يكون جملة، ولكنهم اصطدموا بنصوص عربية لا يرقى إليها الشك، جاء

---

[٣١] الآية ٤٧ من سورة إبراهيم.

[٣٢] الدر المصون في علوم الكتاب المكنون / السمين الحلبي ١٦٧/٥، والبحر المحيط لابن حبان ٤٣٩/٥ .

[٣٣] الكوفيون في النحو والصرف/٢٧ .

[٣٤] الكوفيون في النحو والصرف /١٥

[٣٥] دروس في المذاهب النحوية ٩٠ .

[٣٦] المدارس النحوية ١٦٠ .

[٣٧] الكوفيون في في النحو والصرف/١٣ .

الفاعل فيها جملة، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّه﴾ [٣٨]، ففاعل ((بدا)) أوله البصريون بأنه ضمير مستتر تقديره ((هو)) يعود إلى المصدر المفهوم من الفعل ((بدا))، والتقدير: ثم بدا لهم بداء هو ، وهذا تمحل وتكلف في فهم النص .

أما الكوفيون فأنهم أقروا جواز مجيء الفاعل جملة لورود هذا النص القرآني ونحوه ولذلك فهم يرون الفاعل جملة ((ليسجننه)).[٣٩]

ورأي البصريين هذا إنما هو لجمهورهم، وان كان هناك من قال بمثل ما قال به الكوفيون، وفي مقدمتهم سيبويه إذ جوز أن تكون جملة (ليسجننه) هي الفاعل، ونقل ذلك عنه ابن النحاس أيضاً [٤٠] .

وقد بلغ من توسع الكوفيين في الاعتماد على الرواية دون تمحيص أنهم أخذوا برواية من لا يوثق بهم ، واعتمدوا على كلام من لانت ألسنتهم، وقد كان ذلك مدعاة للبصريين في أنَّ يفخروا على الكوفيين حين قال قائلهم: ((نحن نأخذ اللغة عن حرشة – أكلة – الضباب، واكلة اليرابيع، أي البدو الخلص، وانتم تأخذونها عن أكلة الشوارز، وباعة الكواميخ، أي: عرب المدن)) [٤١].

ولولا هذا التوسع في قبول الرواية لما كتب للكسائي الانتصار على سيبويه في مناظرته إياه أمام الرشيد ، فقد اعتمد على خليط ((من مختلف القبائل العربية غير العريقة في العروبة، ومنهم أعراب الحليمات الذين قدموا بغداد، وضربوا خيامهم في ((قطربل))– قرية من متنزهات بغداد اشتهرت باللهو والخمرة، فاعتد بكلامهم، واستشهد بهم، وهم من زعانف العرب الذين اختبل لسانهم))[٤٢] .

((والمهم أن هذه المناظرة أرست أصلاً من أصول المدرسة الكوفية، وهو الأخذ باللغات الشاذة المخالفة للأقيسة البصرية من جهة، والشائع المتداول على أفواه العرب من جهة ثانية)) [٤٣] .

فالكوفيون((يدعون إلى التوسعة وترك التشدد والتضييق مكانياً وزمانياً،والقياس الوصفي على كلام العرب كلها: الشاذ والمطرد في الغالب وهي مسألة عابها عليهم خصومهم البصريون وغيرهم من النحويين)) [٤٤].

المصطلحات

استقل الكوفيون بمصطلحات نحوية خالفوا فيها اصطلاحات البصريين، ولا شك أن ذلك مظهر من مظاهر الخلاف العام الذي جرى بين المدرستين، فهو لم يقف ((بين الفريقين عند المسائل العلمية بل سرت عدواه إلى التسمية في المصطلحات العلمية الكثيرة جداً)) [٤٥] .

((وواضح من تفكير الكوفيين أنهم كانوا يقصدون مخالفة البصريين في تلك المصطلحات)) [٤٦] .

ترفعاً منهم من أن تذوب شخصيتهم النحوية في مذهب البصريين، ومما يدل على أنهم أرادوا بأكثر

---

[٣٨] الآية ٣٥ من سورة يوسف.
[٣٩] دروس في الذاهب النحوية ٩١ .
[٤٠] الكتاب ٤٥٦/١، اعراب القرآن لابن النحاس ١٤١/٢، واورده ابو حيان في البحر المحيط لكنه لم ينسبه لاحد ٣٠٧/٥ .
[٤١] المدارس النحوية ١٦٠ .
[٤٢] نشأة النحو ١٣٩ .
[٤٣] الدارس النحوية ١٧٤ .
[٤٤] الكوفيون في النحو والصرف /١٨ .
[٤٥] نشأة النحو ١٦٩ .

مصطلحاتهم مجرد الخلاف للبصريين موقفهم من مصطلحات الإعراب والبناء التي وضعتها المدرسة البصرية فعمل البصريون على التفريق بين حركات أواخر الكلمات المعربة والمبنية ، إذ جعلت الرفع والنصب والجر والجزم للمعربة، وجعلت الضم والفتح والكسر والوقف أو السكون للمبنية .

ثم جاء الكوفيون وفكروا طويلاً ، هل يمكن أن يضعوا لهذه الحركات مصطلحات جديدة ؟ حتى إذا أعياهم ذلك لجؤوا إلى قلبها فجعلوا ألقاب الإعراب للمبني من الكلمات، وألقاب البناء للمعرب.[٤٧]

وأبرز من سار على هذا المنهج من الكوفيين الفراء فعبر عن الفتح بالنصب وعن الكسر بالخفض، فقد جاء في تفسيره قول الله تعالى:﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُم﴾[٤٨] :

((والقراء تقرأ – يَخطَّفُ – بنصب الياء والخاء والتشديد، وبعضهم ينصب الياء ويخفض الخاء ويشدِّد الطاء فيقول: ((يخطف)) [٤٩] .

والفراء من أكثر الكوفيين مخالفة للبصريين في وضع المصطلحات، فقد وضع مصطلحات جديدة لم تكن معروفة لدى غيره كمصطلح – الصرف – الذي عنى به النصب في موضعين :

الأول : الفعل المضارع المنصوب بعد الواو والفاء وأو .

الثاني : المفعول معه [٥٠] .

فقد جاء في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٥١] قوله:

((إن شئت جعلت – وتكتموا في موضع جزم، تريد به: ولا تلبسوا الحق بالباطل ولا تكتموا الحق..... وإن شئت جعلت هذه الأحرف المعطوفة بالواو نصباً على ما يقول النحويون من الصرف، فإن قلت: وما الصرف؟ قلت: أن تأتي بالواو معطوفة على كلام في أوله حادثة لا تستقيم إعادتها على ما عطف عليها، فإذا كان كذلك فهو الصرف، كقول الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت ذلك عظيم)) [٥٢]

وعن منهج الفراء هذا في مخالفة البصريين يقول أبو الطيب اللغوي :((فأما على مذاهب سيبويه فإنه يعتمد خلافه حتى ألقاب الإعراب وتسمية الحروف)) [٥٣] .

وإذا كان للفرّاء ومن قبله الكسائي فضل السبق إلى وضع الأسس للمصطلحات الكوفية، فإن لثعلب فضل تطويرها وشرحها وتعليلها والإضافة إليها، فمن المصطلحات التي استعملها ثعلب: (الفعل

---

[٤٦] المدارس النحوية ١٦٩ .
[٤٧] المدارس النحوية / ١٦٨ .
[٤٨] الآية ٢٠ من سورة البقرة .
[٤٩] معاني القرآن ١٧/١ .
[٥٠] المدارس النحوية ١٨٩ .
[٥١] الآية ٤٢ من سورة البقرة .
[٥٢] معاني القرآن ٣٣/١- ٣٤، والبيت من الكامل، وقد اختلف في قائله: فقيل : الأخطل، وقيل: المتوكل اللبتي – وهو من شعراء الإسلام كوفي الأصل .
ينظر شرح أبيات المغني ١١٢/٦-١١٣ والحلل شرح أبيات الجمل ٢٦٠- ٢٦١ .
[٥٣] مراتب النحويين : ١٤١ .

الدائم) الذي عنى به اسم الفاعل، ومنها (الجحد) الذي أراد به النفي ، ومنها (لا التبرئة) التي أراد بها لا النافية للجنس ، ومنها (الصفة) وعنى بها الظرف، وغير ذلك من المصطلحات [٥٤] .

ولم يكتب لمصطلحاتهم هذه أن تسود التأليف في النحـو العربي كله بعدهم ، إذ اعتمد أكثر النحاة مذهب البصريين بكل ما يحتويه، وجعلوه بالمرتبة الأولى ، ولذلك كانت مصطلحات البصريين السائدة عند الإطلاق في كتب النحو ، ما خلا بعض الاصطلاحات التي ظلت مستمرة من مصطلحات الكوفيين ، كمصطلح النعت وعطف النسق[٥٥] .

وقد كان من آثار خلاف الكوفيين للبصريين في هذه الأصول أن حصل بينهم خلاف في تقرير كثير من القواعدِ والأحكام النحوية، وكان لكل من الفريقين أدلته وحجته فيما يذهب إليه ، منها ما يكون دليلاً نقلياً، ومنها ما يكون دليلاً عقلياً منطقياً .

وقد عني كثير من النحاة بهذا الخلاف، فألَّفوا فيه الكتب ، وصنفوا التصانيف، وخصصوا موضوعاتها لدراسة المسائل الخلافية فقط ، كما أننا نجد علماء آخرين قد بثُّوا كثيراً من هذا الخلاف في ثنايا كتبهم النحوية ، فكان قسم يعرض الاتجاهين في المسألة دون ترجيح لواحد منهما على الآخر ، وكان القسم الآخر يرجح ما يبدو له أنه الراجح .

ولاستكمال هذه الناحية من الموازنة بين المدرستين ، يجدر بنا – هنا– ان نذكر بعض المسائل النحوية التي حصل فيها خلاف بينهما وذكرها النحاة بغير ترجيح وبترجيح.

فمن المسائل التي ذكرت من غير ترجيحٍ ما يأتي:–

أولاً: جمع العلم المؤنث بالتاء جمع مذكر سالماً:

وهذه المسألة الرابعة من المسائل الخلافية التي ذكرها الأنباري في الإنصاف.

ذهب الكوفيون إلى جواز جمع مثل " طلحة وحمزة " بالواو والنون ، فيقولون: طلحون وحمزون ، ومنع ذلك البصريون .

وقد استدل الكوفيون بالسماع والقياس:

أما السماع: فقد قالوا في " علانية " للرجل المشهور: علانيون، وفي " ربعة " للرجل المعتدل القامة "ربعون" [٥٦] .

وأما القياس: فعلى ما ورد في جمعه جمع تكسير ، وان أدى إلى حذف التاء .

قال الشاعر:

وعقبة الاعقاب في الشهر الأصم [٥٧]

والبصريون: يمنعون ذلك لعدم وروده عن العرب، بل قالوا: طلحات وهبيرات وربعات، قال الشاعر:

رحم الله أعظما دفنوها بسجستان طلحة الطلحات[٥٨]

---

[٥٤] مجالس ثعلب ٥٤٢ - ومجالس العلماء للزجاجي ٣١٨ .

[٥٥] دروس في المذاهب النحوية .

[٥٦] همع الهوامع ٤٥/١ .

[٥٧] لم يعثر على قائل هذا البيت ولا على تكملته ، وهو موجود في الإنصاف ٤٠/١ مسألة ٤، وفي درر اللوامع ١٩/١ .

رد البصريون الكوفيين بما يأتي:

١- ما جاء عن طريق السماع نفاه سيبويه، فيما نقل عن يونس، إذ قال:((زعم يونس أنك إذا سميت رجلاً " طلحة " أو امرأة " سلمة " أو" جبلة " ثم أردت أن تجمع جمعته بالتاء كما كنت جامعه قبل أن يكون اسماً لرجل أو امرأة على الأصل ، ألا تراهم وصفوا المذكر بالمؤنث، فقالوا: رجل ربعة، وجمعوها بالتاء فقالوا: " ربعات " ولم يقولوا: ربعون، وقالوا: طلحة الطلحات، ولم يقولوا: طلحة الطلحين ، فهذا يجمع على الأصل لا يتغير عن ذلك ، كما أنه إذا صار وصفاً للمذكر لم تذهب الهاء)) [٥٩] .

وبمثل هذا قال المبرد [٦٠]، وابن عصفور [٦١]، والازهري [٦٢]، ورضي الدين الاستراباديّ[٦٣]، ولم يذكر السماع عن الكوفيين إلا السيوطي[٦٤]، إذ قال: ((أما السماع فقولهم في علانية ، للرجل المشهور: علانون، وفي " ربعة " للمعتدل القامة: ربعون، ثم قال بعد ذلك : وأجيب عن السماع بشذوذه)) [٦٥] في حين أنَّ مَنْ سبقه ممن ذكر من النحاة لم يذكروا السماع عن العرب، وان كان قد سمع فهو شاذ أو انه ورد عن غير الفصحاء الذين لا يركن إليهم .

٢- أما ما استدلوا به عن طريق القياس- فقد أجابهم البصريون:

إنَّ البيت الذي استشهدتم به:

وعقبة الأعقاب في الشهر الأصم

لا تعلق لكم به، لأن جمع التصحيح ليس على قياس جمع التكسير حتى يحمل عليه، إذ من شروط جمع التصحيح المحافظة على سلامة المفرد- حروفه وحركاته-، ولأن جمع التكسير يعقب تأنيثه التاء المحذوفة، ولا تأنيث في جمع السلامة يعقبها، على ان جمعه تكسيراً غير سليم، لأنه لم يرد منه سوى هذا البيت، فلا يقاس عليه، مع إمكان تأويله بجعل الأعقاب جمع عقبة بمعنى الاعتقاب لا العلم [٦٦]، والدليل إذا تطرقه الاحتمال بطل به الاستدلال .

وقد ذكر الشيخ محيي الدين عبدالحميد أنه لم يقف لهذا البيت- مع طول البحث- على نسبة ولا تكملة .

ثانياً: " حاشا " وحرفيتها:

قد نجد بعض أصحاب الفريق البصري يتفق في الرأي مع الفريق الكوفي، وكذلك العكس ، ولعل القول في فعلية حاشا وحرفيتها، يوضح لنا ذلك، وقد جعل الأنباري التحدث عن هذه المسألة تحت الرقم ٣٧ من الإنصاف ويبدو ان "حاشا" للنحاة فيها أربعة أراء:

---

[٥٨] البيت من الخفيف ، وهو لعبدالله بن قيس الرقيات، والمقصود بطلحة الطلحات: طلحة بن عبدالله بن خلف الخزاعي، وسمي بذلك لان في اجداده جماعة يسمون طلحة، ينظر: الانصاف ٤١/١ مسألة ٤، وشرح المفصل لابن يعيش ٤٧/١، همع الهوامع ١٢٧/٢، الدرر اللوامع ١٦٢/٢ .

[٥٩] الكتاب ٩٥/٢ .

[٦٠] المقتضب ٧/٤ .

[٦١] شرح الجمل ١٤٧/١ .

[٦٢] شرح التصريح على التوضيح ٧٠/١ .

[٦٣] شرح الكفاية ١٨٠/٢ .

[٦٤] همع الهوامع ٤٥/١ .

[٦٥] همع الهوامع ٤٥/١ .

[٦٦] همع الهوامع ٤٥/١ .

الأول: قول سيبويه:

وهو أنَّ " حاشا " ليس باسم ، ولكنها حرف تجر ما بعدها، كما تجر "حتى" ما بعدها ، إلاَّ أنها تحمل معنى الاستثناء، فبعض العرب يقول: ما أتاني القوم خلا عبدالله" فجعلوا خلا بمنزلة حاشا[٦٧]، أي ان حاشا حرف جر، وهو وما بعده في موقع نصب بما قبله، وقد أيَّدهُ الزمخشري بقوله: ((والثالث مجـرور أبدا، وهو مـا استثنى بــ" غير"و "حاشا " و "سوى" و"سواء"))[٦٨] فنقول قام القوم حاشا زيد، فهي حرف، والجر بها هو الراجح عند اكثر البصريين الذين تبعوا سيبويه.[٦٩]

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

أ- إنها لو كانت فعلاً لجاز أن تدخل عليها "ما " كما تدخل على الأفعال، فيقال ما حاشا زيداً،كما يقال : ما خلا زيداً، فلما لم يقل ذلك دل على أنَّها ليس بفعل، فوجب أن تكون حرفاً [٧٠] .

ب- لقولهم " حاشاي " من غير نون الوقاية، ولو كان فعلاً لم يجز ذلك .[٧١]

ج- إنها جرت الاسم الذي بعدها في قول الشاعر:

حاشا أبي الثوبان ان به ضنا على الملحاة والشتم[٧٢]

الثاني: رأي الفرّاء :

إنها لا تكون إلا فعلا، لا فاعل له، سواء أكان ما بعده مجروراً أم منصوباً، فإن كان مجروراً ، فهو من باب حذف حرف الجر وإبقاء عمله، وأن الأصل في قولك حاشا زيد : حاشا لزيد، فحذف اللام لكثرة الاستعمال وخفضوا بها [٧٣] .

وهذا مثل قول الشاعر:

إذا قيل أي الناس شر قبيلة أشارت كليب بالأكف الأصابع[٧٤]

إذ الأصل: أشارت إلى كليب، فحذفت " إلى " وبقي عملها[٧٥] .

أما إذا كان الاسم بعدها منصوباً فهو من النصب بعد نزع الخافض، والحمل على" إلا " [٧٦]، ومثله في ذلك مثل نصب الاسم بنزع الخافض في قول الشاعر:

---

[٦٧] الكتاب ٣٧٧/١ .

[٦٨] شرح المفصل ١٩٧/١ .

[٦٩] شرح الاشموني ٤٩٨/٢ .

[٧٠] الانصاف ٢٨٠/١ .

[٧١] شرح الرضى على الكفاية ٢٢٤/١، وخزانة الادب ٤٤/٢ .

[٧٢] البيت من السريع/ وقائله: المنقذ بن الطماح الاسدي الملقب بالجميح، وهو موجود في الانصاف ٢٨٠/١، وشرح الاشموني ١٦٥/٢، وشرح أبيات المغني للبغدادي ٨٨،٨٩/٣، وقد ذكر الشيخ محمد محي الدين عبدالحميد في تعليقه على هذا البيت في الانصاف هامش (١٦٦)، ان النحاة قد لفقوه من بيتين وهما:

١- حاشا ابا الثوبان ان ابا .. ثوبان ليس ببكمة فدم

٢- عمرو بن عبدالله ، ان به .. ضنا عن الملحاة والشتم

ومعنى بكمة فدم: أي ليس بابكم وليس عياً عن الكلام .

ومعنى: الملحاة : أي الالحاح في اللوم .

[٧٣] الإنصاف ٢٧٩/١، وشرح المفصل ٨٥/٢ .

[٧٤] البيت من الطويل، وهو للفرزدق يهجوا به جريراً، ينظر: همع الهوامع ٣٦/٢، والدرر اللوامع ٣٧/٢، ١٠٦،وديوان الفرزدق ٥٢٠ .

[٧٥] شرح ابن عقيل ٣٩/٢-٤٠ ، والإنصاف ٢٨٢/١، الهامش .

تمرون الديار ولم تعوجوا كلامكم عليَّ إذاً حرام [٧٧]

وأصله : تمرون بالديار[٧٨].

الثالث: ما ذهب إليه أكثر الكوفيين:

من أن " حاشا " فعل ماضٍ، وذهب بعضهم إلى أنه فعل استعمل استعمال الأدوات ، واستدلوا على ذلك بما يأتي:

أ- إنه يتصرف ، والتصرف من خصائص الأفعال .

قال النابغة:

ولا أرى فاعلاً في الناسِ يشبهـهُ وما أحاشي من الأقوام من أحد [٧٩]

فإذا ثبت كونه متصرفاً، وجب أن يكون فعلاً .

ب- يدخله الحذف ، والحذف إنما يكون في الفعل لا في الحرف، ألا ترى أنهم قالوا في "حاشا لله " : " حاش لله " ، ولهذا قرأ اكثر القراء بإسقاط الألف " حاش لله " وكذلك هُوَ مكتوب في المصاحف[٨٠] .

ج – إن لام الجر تتعلق بِهِ في قولهم : حاشا لله ، وحرف الجر إنما يتعلق بالفعل لا بالحرف ، لأنَّ الحرف لا يتعلق بالحرف ، وإنما حذفت اللام لكثرة استعماله في الكلام .

الرابع : رأي المبرد :

يرى أن " حاشا " تكون فعلا فتنصب مَا بعدها مفعولا بِهِ ، وتكون حرفا فتجر مابعدها ، ومثلها في ذَلِكَ " عدا " و " خلا " .

قَالَ المبرد : ((وَمَا كَانَ حرفا سوى الا فـ " حاشا : و " خلا " ، وَمَا كَانَ فعلا فـ " حاشا " و " خلا" وان وافقا لفظ الحروف)) [٨١] فَهْـوَ يوافق سيبويه في كونها حرف جر ، ويوافق الكوفيين في كونها فعلا ينصب مَا بعده[٨٢] .

واستدل عَلَى ذَلِكَ بمَا يأتي :

أ – ان حاشا تتصرف فتقول : حاشيت أحاشي ، ثُمَّ استشهد بقول النابغة المتقدم .

ب – إنَّ " حاشا تدل عَلَى لام الجر فتقول : " حاشا لزيد)٩ وَقَدْ قرأت القراء إلا أبا عَمْرو بن العلاء " حاشا لله " .

وأيده في ذَلِكَ أبو عَمْرو الشيبانى ، وابن جنى الَّذِي قَالَ :

((وأما حاشا و " خلا " فيكونان فعلين فينصبان ، ويكونان حرفين فيجران ، تقول : قام القوم خلا زيدا ، وحاشا عمرا ، وحاشا عَمْرو ، قَالَ الشاعر :

حاشا أبي ثوبان إن بِهِ ضنا عَلَى الملحاة والشتم))[٨٣] .

---

[٧٦] همع الهوامع ٢٨٦/٣ .

[٧٧] البيت من الوافر، وقائله : جرير، وهو موجود في شرح أبيات المغني للبغدادي ٢٩٠/٢ .

[٧٨] شرح ابن عقيل ١/ ٥٣٨ .

[٧٩] البيت من البسيط وهو للنابغة الذبياني، ينظر له : الإنصاف ٢٧٨/١ مسألة ٣٧ ومغني اللبيب ١٦٤ الطبعة الثالثة، والاشموني ١٦٧/٢ .

[٨٠] الإنصاف ٢٨٠/١ .

[٨١] المقتضب ٣٩١/٤ .

[٨٢] شرح المفصل ٨٥/٢ .

مناقشة الآراء:

رد الكوفيون رأي سيبويه الذي لَمْ يجوز النصب بـ" حاشا " بِمَا يأتي :

أ – إن الصَّحِيح جوازه ، إذ ثبت ذَلِكَ بِنَقْلِ أبى زيد ، وأبى عَمْرو الشيباني ، والاخفش والمبرد ، والزجاج . وَمَنْ ذَلِكَ قَوْل الشاعر :

حاشا قريشا فان الله فضلهم عَلَى البرية بالإسلام والدين [٨٤].

وَقَدْ أعطوا العذر لسيبويه بأنه يحفظ النصب بها عَن العرب .

ب– البيت الَّذِي استشهد بِهِ هُوَ وأتباعه في جر الاسم بَعْد " حاشا " وَهُوَ قَول الشاعر:

حاشا أبي الثوبان

قَد ورد في رِوَايَة أخرى " حاشا أبا الثوبان " بنصب الاسم بَعْد حاشا[٨٥] .

ج– حفظ العُلَمَاء الثِّقات دخول " مَا " عَلَى "حاشا " في قَول الأخطل:

رأيت النَّاس مَا حاشا قريشاً فانا نحن أفضلهم فعالا[٨٦]

كَمَا حفظوا النصب بَعْد حاشا مِنْ غَيْر ان تلحقها " مَا "، نَحْوَ مَا رَوَاهُ أبو زيد: مِنْ الحروف نَحْوَ قولهم: سوفته إذا قُلْت لَهُ: سوف أفعل كذَا ، وَنَحْوَ قولهم: سألتك حاجة فلوليت، أيْ : قلت: لولا كذَا وكذا، وكذلك وَلاَ أحاشي معناه:

لا أقول حاشا فلان[٨٧] .

ب– قولهم: ان لام الجر تتعلق بِهِ ،رده البصريون بأن اللام في قولهم: "حاشا لله "زائدة لا تتعلق بشيء ، كقوله تعالى"﴿ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[٨٨] لأنَّ التقدير فِيهِ: يرهبون ربهم، واللام زائدة لا تتعلق بشيء، كقوله تعالى:﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى[٨٩]﴾ أيْ : يعلم ان الله، وكقوله:﴿ اقرأ بِاسمِ رَبَكَ﴾[٩٠] أيْ : اقرأ اسم ربك وكقوله: ﴿ وَلاَ تلقوا بأيديكم إلى التهلكةِ﴾[٩١] أي:لا تلقوا أيديكم، وكقولهم: بحسبك زيد، أيْ: حسبك زيد، فالباء زائدة لا تتعلق بشيء[٩٢] .

ج– قولهم يدخله الحذف، والحذف لا يكون في الحرف، رده البصريون بِمَا يأتي:

١– إننا لا نقر دخول الحذف عليه لأنَّ الأصل عِنْدَ بعضهم في حاشا حاش بغير الف، وَإِنَّمَا زيدت فِيهِ الألف . وكذلك الجواب عن القراءة " حاش لله " عَلَى ان هَذِهِ القراءة قَدْ أنكرها أبو عَمْرو بن العلاء إذ يرى أنَّ العرب لا تقول: حاش لك، وَلاَ حاشك، وَإِنَّمَا تقول: حاشا لك، وحاشك، وكان يقرؤها: "حاشا

---

[٨٣] اللمع في العربية ١٤٦ .

[٨٤] البيت مِنْ البسيط ، لَمْ اعثر عَلَى قائله ، وَهُوَ موجود في شرح شواهد ابن عقيل ص ١٢٧ .

[٨٥] مغني اللبيب ١٢٢/١ .

[٨٦] البيت مِنْ الوافر ، قائله الأخطل ، ينظر الجني الداني ٥٦٥ تحقيق د٠ فخر الدين قباوة ، وَمُحَمَّد نديم فاضل ، وشرح شواهد ابن عقيل ١٢٨ .

[٨٧] شرح الرضى عَلَى الكافية ٢٢٤/١ ، شرح جمل الزجاجي ٢٤٨/٢ .

[٨٨] الآية ١٥٤ مِنْ سورة الأعراف .

[٨٩] الآية ١ مِنْ سورة العلق .

[٩٠] الآية ١ مِنْ سورة العلق .

[٩١] الآية ١٩٥ مِنْ سورة البقرة .

[٩٢] الإنصاف ١/ ٢٨١- ٢٨٢ .

لله " بالألف في الوصل، وَيَقِف بغير ألف متابعة للمصحف، لان الكتابة عَلَى الوقف لا عَلَى الوصل، وقَالَ عيسى بن عمر وكان مِنْ الموثوق بعلمهم في العربية: العرب كلها تقول: حاشا لله .. بالألف [٩٣].

٢- قولهم: إنَّ الحرف لا يدخله الحذف، لا يوافق عَلَيْهِ البصريون، لأنهم يرون دخول الحذف الحرف، إذ قالوا: إنَّ العرب قَالَتْ في رُبَّ :رُبَ بالتخفيف، وَقَدْ قرئ بِهِ قوله تعالى :

﴿ رُبَمَا يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ ثُمَّ ان البصريين قالوا للكوفيين: " حكيتم عَن العرب أنهم قالوا في " سوف أفعل" " سو افعل" بحذف الفاء ، وحكاه أبو العباس أحْمَد بن يَحْيَى بن ثعلب في أماليه وحكى ابن خالويه فيها أيضاً: " سف أفعل " بحذف الواو، وزعمتم أيضاً ان الأصل في " سأفعل" سوف أفعل، فحذفت الواو والفاء معاً، وسوف حرف،

وإذا جوزتم حذف حرفين، فكيف تمنعون جواز حذف واحد ؟ "[٩٤] .

أما رأي المبرد فقد رد بِمَا يأتي :

أ – ان دخول " مَا " في البيت الذي استشهد بِهِ وَهُوَ :

رأيت النَّاس مَا حاشا قريشا فانا نحن أفضلهم فعالا

يعد مِنْ الشواذ [٩٥].

ب – ان المبرد وهم حين قَالَ بتصرف " حاشا " مستشهدا بقول الشاعر :

وَمَا أحاشي مِنْ الأقوام مِنْ أحد

لأنَّ "حاشى " ليست "حاشا " الاستثنائية[٩٦] ، فأحاشي هَذِهِ ليست مضارع " حاشا " الاستثنائية بل هي حرف أو فعل تضمن معنى الحرف .

فهاتان مسألتان خَالَفَ فِيهَا الكوفيون البصريين وَقَدْ ذكرها النحاة مِنْ غَيْر ترجيح لرأي أحدهما .

وقد وَجَدْنَا فريقا مِنْ النحاة يرجحون بعض الآراء عَلَى بعض ، كمَا فعل الرضي في شرحه عَلَى الكافية ،إذ نراه كثيراً مَا يرجح الآراء الكوفية .

ونذكر لِذَلِكَ مسألتين أيضاً :

أولاً : وقوع الفعل الماضي حالا –

ذهب الكوفيون إلى ان الفعل الماضي يجوز ان يقع حالا، وإليه ذهب أبو الحسن الأخفش [٩٧].

وذهب البصريون إلى انه لا يجوز أن يقع حالا[٩٨] ، إلا إذا كانت مَعَهُ " قَدْ " أو كَانَ وصفا لمحذوف .

استدل الكوفيون لمذهبهم بالنقل والقياس :

أما النقل : فقد استشهدوا بقوله تعالى : " أو جاءوكم حصرت صدورهم "[٩٩] .

فـ " حصرت " فعل ماض وَهُوَ في موضع الحال ، والتقدير : حصرة صدورهم ، ويقوي هَذَا قراءة مِنْ قرأ " او جاؤكم حصرة صدورهم "[١٠٠] . واستشهدوا أيضا بقول الشاعر : [١٠١]

---

[٩٣] المصدر نفسه ٢٨٥/١ .

[٩٤] المصدر نفسه ٢٨٦/١ – ٢٨٧ .

[٩٥] حاشية الصبان ١٦٤/٢ .

[٩٦] المصدر نفسه ١٦٦/٢ .

[٩٧] شرح الرضى عَلَى الكفاية ٢١٣/١، همع الهوامع ٢٤٧/١، الاشموني ٢٩١/٢ .

[٩٨] الإنصاف ٢٥٢/١ ، المقتضب ١٢٣/٤- ١٢٤ ، شرح ابن يعيش ٦٦/٢- ٦٧ .

[٩٩] الآية ٩٠ مِنْ سورة النساء .

وإني لتعرونى لذكراك نفضة كَمَا انتفض العصفور بلله القطر[١٠٢]
فبلله فعل ماض وَهُوَ في موضع الحال .
وأما القياس : فلأنَّ كل ماجاز أن يكون صفة للنكرة نَحْوَ : مررت برجل قاعد وغلام قائم ، جاز ان يكون حالا للمعرفة نَحْوَ : مررت بالرجل قاعدا وبالغلام قائما ، والفعل الماضي يجوز أن يكون صفة للنكرة نَحْوَ مررت برجل قعد وغلام قام ، فينبغي جواز وقوعه حالا نَحْوَ مررت بالرجل قعد وبالغلام قام وَمَا أشبه ذَلِكَ [١٠٣] .
وأما البصريون : فاحتجوا بأن قالوا :
إنما قلنا : لا يجوز أن يقع الفعل الماضي حالاً لوجهين :
أحدهما : أنَّ الفعل الماضي لا يدل عَلَى الحال فينبغي أن لا يقوم مقامه[١٠٤] .
الثاني : أنه إنما يصلح أن يوضع موضع الحال مَا يصلح أن يُقَال فِيهِ الآن أو الساعة نَحْوَ مررت بزيد يضرب ونظرت إلى عَمْرو يكتب ، لأنه يحسن أن يقترن بِهِ الآن أو الساعة ، وَهَذَا لا يصلح في الماضي فينبغي أن لا يكون حالا ولهذا لا يجوز أن يُقَال : مَا زال زيد قام ، وَلَيْسَ زيد قام ، لأنَّ " مازال " و " لَيْسَ " يطلبان الحال و " قام " فعل ماض ، فلو جاز أن يقع حالاً لوجب ان يكون هَذَا جائزا ، فلما لَمْ يجز ، دل عَلَى أن الفعل الماضي لا يجوز أن يقع حالا ، وكذلك لو قُلْت :
زيد خلفك قام ، لَمْ يجز ان يجعل " قام " في موضع الحال .
رد البصريون عَلَى أدلة الكوفيين بما يأتي :
أ- أما الاحتجاج بقوله تعالى: '' أو جاؤكم حصرت صدورهم'' فَلاَ حجة لَهُم فِيهِ وذلك مِنْ أربعة أوجه :
الأول : يجوز أن تكون صفة ل " قوم " المجرور في أول الآية ، وَهُو قوله تعالى : " إلا الذين يصلون إلى قوم " وَمَا بينهما اعتراض ، ويؤيده انه قرئ بإسقاط " أو " فتكون " جاؤكم " صفة لقوم ، و" حصرت " صفة ثانية . [١٠٥]
الثاني : ان تكون صفة ل " قوم " مقدر ، والتقدير: أو جاؤكم قوما حصرت صدورهم .
والماضي إذا وقع صفة لمحذوف جاز ان يقع حالا بالإجماع [١٠٦] .
الثالث : أن يكون خبرا بَعْد خبر ، كأنه قَالَ : " او جاؤكم " ثُمَّ اخبر فَقَالَ : " حصرت صدورهم "[١٠٧]
الرابع : أن يكون محمولا عَلَى الدعاء لا عَلَى الحال ، كأنه قَالَ : ضيق الله صدورهم ، كَمَا تقول : جاءني فُلان وسع الله رزقه ، وأحسن إليّ غفر الله لَهُ ، وَمَا أشبه ذَلِكَ ، فاللفظ في ذَلِكَ كله لفظ الماضي ومعناه الدعاء . وكذلك قوله تعالى : " حصرت صدورهم " لفظه لفظ الماضي ، ومعناه الدعاء .

---

[١٠٠] المهذب في القراءات العشر ١٦٦/١ .
[١٠١] الإنصاف ٢٥٣/١ ، شرح الكفاية ٢١٣/١ .
[١٠٢] البيت مِنْ الطويل ، قائله : أبو صخر الهذلي. ينظر: شرح المفصل لابن يعيش ٦٧/٢ ، الدرر اللوامع ١٦٦/١ .
[١٠٣] الإنصاف ٢٥٣/١ ، شرح المفصل ٦٧/٢ .
[١٠٤] الإنصاف ٢٥٤/١ .
[١٠٥] الإنصاف ٢٥٤/١ .
[١٠٦] المصدر نفسه .
[١٠٧] المصدر السابق ٢٥٥/١ .

٢ – الاحتجاج بقول الشاعر :

وإني لتعروني لذكراك نفضة كَمَا انتفض العصفور بلله القطر

قَالَ البصريون : إنما جاز ذَلِكَ لأن التقدير:" قَدْ بلله القطر " إلا انه حذف (قَدْ) لضرورة الشعر ، فلما كانت " قَدْ " مقدرة ، نزلت منزلة الملفوظ بها ، وَلاَ خلاف في انه إذا كانت " قَدْ " مَعَ الفعل الماضي فإنه يجوز أن يقع حالا[١٠٨] .

٣ – أما الاحتجاج بالقياس :

فقد رد عَلَيْهِ البصريون بِمَا يأتي :

أما قولهم : انه يصلح ان يكون صفة للنكرة فصلح ان يقع حالا .

قلنا: هَذَا فاسد ، لأنه إنما جاز أن يقع نَحْوَ قاعد وقائم حالا ، لأنه اسم فاعل ، واسم الفاعل يراد بِهِ الحال، بخلاف الفعل الماضي فانه لا يراد بِهِ الحال فلم يجز أن يقع حالا [١٠٩] .

وَقَدْ أكد ابن يعيش هَذَا الرد فَقَالَ :

((إنَّ كل مَا يجوز ان يكون حالا يجوز أن يكون صفة للنكرة، وَلَيْسَ كل مَايجوز ان يكون صفة للنكرة يجوز أن يكون حالا،ألا ترى أن الفعل المستقبل يجوز أن يكون صفة للنكرة نَحْوَ هَذَا رجل سيكتب أو سيضرب، وَلاَ يجوز أن يقع حالا، فضاحك ونحوه إنما وقع حالا لأنه اسم فاعل، واسم الفاعل قَدْ يكون للحال وَلَيْسَ كَذَلِكَ الفعل الماضي، وَلاَ الفعل المستقبل، فَلاَ يكون كل واحد منهما حالا)) [١١٠].

وَقَدْ رجح الرضي رأى الكوفيين قائلا :

((والأخفش والكوفيون غَيْر الفراء لَمْ يوجبوا قَدْ في الماضي المثبت ظاهرة أو مقدرة ، استدلالا بنحو قوله : " كَمَا انتفض العصفور بلله القطر ، وقوله تعالى : " اوجاؤكم حصرت صدورهم " وَغَيرُهُم أوجبوه لما مضى ، والأول قريب)) [١١١].

وممن رجح مَذْهَب الكوفيين أيضا أبو حيان فَقَالَ عَنْ وقوع الفعل الماضي حالا :

((وَلاَ يحتاج إلى إضمار (قَد) فقد كثر وقوع الماضي حالا بغير قَدْ ، كثرة ينبغي القياس عَلَيهَا[١١٢])) .

وَقَالَ أيضاً :

((وَقَدْ أجاز الأخفش مِنْ البصريين وقوع الماضي حالا بغير قَدْ وَهُوَ الصَّحِيح اذ كثر ذَلِكَ في لسان العرب كثرة فوجب القياس)) [١١٣].

وَقَدْ نقل عَنْهُ السيوطي رأيه هَذَا أيضاً فَقَالَ :

((قَالَ أبو حيان : وَالصَّحِيح جواز وقوع الماضي حالا بدون قَدْ ، وَلاَيحتاج إلى تقديرها لكثرة ورود ذَلِكَ ، وتأويل الكثير ضَعِيْف جدا ، لأنا انما نبني المقاييس العربية عَلى وجود الكثرة))[١١٤] .

وممن اختار مذهب الكوفيين أيضا الأشموني والخضري[١١٥] .

---

[١٠٨] المصدر نفسه ٢٥٧/١، شرح ابن يعيش ٦٧/٢ .
[١٠٩] الإنصاف ٢٥٧/٢ .
[١١٠] شرح ابن يعيش ٦٧/٢ .
[١١١] شرح الكفاية ٢١٣/١ .
[١١٢] البحر المحيط ٣٥٥/٦ .
[١١٣] البحر المحيط ٤٩٣/٧ .
[١١٤] همع الهوامع ٢٤٧/١ .

ثانياً : تقديم التمييز عَلَى عامله المتصرف –

١– يرى الكسائي وَمَنْ تابعه مِنْ الكوفيين جواز تقديم التمييز عَلَى عامله المتصرف نَحْو : عرقا تصبب زيد ، وشحما تفقأ الكبش ، وإليه ذهب المازني والمبرد مِن البصريين[١١٦] .

٢ – يرى جُمْهُـور البصريين منع تقديم التمييز عَلَى عامله المتصرف [١١٧].

احتج الكوفيون بالنقل والقياس :

أما النقل ، فقول الشاعر : [١١٨]

أتهجر سلمى بالفراق حبيبها وَمَا كَانَ نفسها بالفراق تطيب[١١٩]

ووجه الاستدلال بِهِ : انه نصب " نفسا " عَلَى التمييز وقدمه عَلَى العامل فِيهِ وَهُوَ " تطيب " لأنَّ التقدير : وَمَا كَانَ الشأن تطيب سلمى نفسا .

وأما القياس :

فلأن هَذَا العامل فعل متصرف ، فجاز تقديم معموله عَلَيْهِ كسائر الأفعال المتصرفة ، ألا ترى أن الفعل لما كَانَ متصرفا نَحْوَ قولك: ضرب زيد عمرا جاز تقديم معموله عَلَيْهِ ، فنقول: عمرا ضرب زيد ، ولهذا ذهبتم إلى أنه يجوز تقديم الحال عَلَى العامل إذا كَانَ فعلا متصرفا نَحْوَ: راكباً جاء زيد . [١٢٠]

واحتج البصريون بقولهم :

إنما قلنا : انه لا يجوز تقديم التمييز عَلَى العامل فِيهِ ، لأنه هُوَ الفاعل في المعنى ، ألا ترى أنك إذا قُلْت : تصبب زيد عرقا وتفقأ الكبش شحما ، أن المتصبب هُوَ العرق ، والمتفقئ هُوَ الشحم ، وَلِذَلِكَ لو قُلْت : حسن زيد غلاماً ودابة ، لَمْ يكن لزيد حظ في الفعل مِنْ جهة المعنى ، بل الفاعل في المعنى هُوَ الغلام والدابة ، فلما كَانَ هُوَ الفاعل في المعنى لَمْ يجز تقديمه ، كَمَا لو كَانَ فاعلاً لفظاً .

مناقشة الأدلة :

رد البصريون قَول الكوفيين بالآتي :

١_ أما مَا استدلوا بِهِ في قَول الشاعر :

أتهجر سلمى بالفراق حبيبها وَمَا كَانَ نفساً بالفراق تطيب

فإن الرواية فِيهِ : وَمَا كَانَ نفسي بالفراق تطيب . وذلك لا حجة فِيهِ .

ولئن سلمنا بِمَا رويتموه فإنا نَقول: نصب " نفساً " بفعلٍ مقدر كأنه قَالَ : أعني نفساً لا عَلَى التمييز ، ولو قدرنا مَا ذكرتموه ، فإنما جاز ذَلِكَ في ضرورة الشعر قليلاً عَلَى طريق الشُّذُوْذ ، فَلا يكون فِيهِ حجة .[١٢١]

٢_ قولهم : إنَّهُ فعل متصرف ، فجاز تقديم معموله عَلَيْهِ كسائر الأفعال المتصرفة .

---

[١١٥] الاشموني ١٩١/٢، حاشية الخضري ٢٢١/١ .

[١١٦] شرح الرضى عَلَى الكفاية ٢٣٣/١ ، الإنصاف ٨٢٨/٢، وهمع الهوامع ٢٥٢/١ .

[١١٧] المصادر السابقة .

[١١٨] الإنصاف ٨٢٨/٢ ، شرح ابن يعيش ٧٣/٢- ٧٤ .

[١١٩] البيت مِنْ الطويل ، اختلف في قائله ، فَقِيل: هُوَ المخبل السعدي ، وَقِيْلَ : اعشى همدان ، وَقِيْلَ: قيس بن الملوح ، ينظر لِذَلِكَ: شرح ابن الناظم ٣٥٢ ، والاشموني ٢٠١/٢ .

[١٢٠] الإنصاف ٨٣٠/٢ .

[١٢١] الإنصاف ٨٣١/٢ .

قلنا : الفرق بينهما واضح ظاهر ، وذلك لأن المنصوبِ في " ضرب زيد عمراً منصوب لفظاً ومعنى ، وأما المنصوب في تصبب زيد عرقاً فَإِنَّهُ _ وإن لَمْ يكن فاعلاً لفظاً _ فإنه فاعل معنى ، فبان الفرق بينهما . [١٢٢]
وَقَدْ رجح الرضي رأي الكوفيين قائلا :
((وأما إذا كَانَ العامل في التمييز الفعل الصريح نَحْوَ : طاب زيد أبا ، واسم الفاعل أو اسم المفعول ، فجوزه المازني والكسائي والمبرد ، نظراً إلى قوة العامل ، ومنعه الباقون ، قِيْلَ : لأنه في الأصل فاعل الفعل المذكور كمَا في : طاب زيد أبا ، أو فاعل الفعل المذكور إذا جعلته لازماً نَحْوَ :﴿ وفجرنا الأرض عيوناً ﴾[١٢٣]أيْ تفجرت عيونها ، أو فاعل ذَلِكَ الفعل إذا جعلته متعدياً ، نَحْوَ : امتلأ الإناء ماء ، أيْ : ملأه الماء ، والفاعل لا يتقدم عَلَى الفعل ، فَكَذَا مَا هُوَ بمعنى الفاعل .
وَلَيْسَ العِلَّة بمرضية ، إذ رُبَّمَا يخرج الشيء عَنْ أصله ، وَلاَ يراعى ذَلِكَ الأصل كمفعول مَا لَمْ يسمِّ فاعله (نائب الفاعل) كَانَ لَهُ لما كَانَ منصوباً أن يتقدم عَلَى الفعل ، فلما قام مقام الفاعل لزمه الرفع وَكَوْنه بَعْد الفعل .
فأي مانع أن يكون للفاعل أيضاً إذا صار على صورة المفعول حكم المفعول في جواز التقديم)) [١٢٤].
فقد ذكر الرضي أن جُمْهُور البصريين منعوا تقديم التمييز على عامله ، ولو كانَ هَذَا العامل متصرفاً .محتجين : بأن التمييز في هَذِهِ الحالة هُوَ الفاعل في المعنى الَّذِي لا يستوفي الفعل فاعله إلا بِهِ ، سواء أكان فعلاً لازماً _ كمَا في نَحْوَ : طاب زيد أبا وفجرنا الأرض عيوناً أيْ : طاب أبو زيد ، وتفجرت عيون الأرض . أم إذا كَانَ الفعل متعدياً ، نَحْوَ : امتلأ الإناء ماء ، أيْ : ملأه الماء ، فالطيب هُوَ الأب ، والمتفجر هُوَ العيون ، والماء هُوَ الَّذِي ملأ الإناء ، لأنه _ وإن لَمْ يكن مثل : طاب زيد أبا ، إذ لا يمكن أن نَقُول : امتلأ ماء الإناء ، كمَا قلنا : طاب أبو زيد ، إلا أَنَّهُ لما كَانَ الماء هُوَ الَّذِي يملأ الإناء ، كَانَ هُوَ الفاعل في الحقيقة ، والفاعل في المعنى كالفاعل لفظاً ، والاثنان لا يجوز تقديمهما عَلَى الفعل ، لِذَلِكَ لا يجوز جُمْهُور البصريين تقديم التمييز عَلَى عامله ، لأنه هُوَ الفاعل .
والرضي لا يوافق البصريين بهذه العِلَّة ، ويصفها بأنها(غَيْر مرضية) لأنه يرى أن بعض العوارض تطرأ عَلَى الشيء فيخرج عَن الحالة الَّتِي كانت لَهُ في الأصل ، ومثال ذَلِكَ : المفعول بِهِ ، عندما يكون منصوباً وَقَدْ ظهر الفاعل مَعَهُ ، يجوز تقديم هَذَا المفعول عَلَى عامله ، وَلَكِن إذا حذفنا الفاعل وبنينا الفعل للمجهول وأقمنا المفعول مقام الفاعل ، ففي هَذِهِ الحالة لا يجوز نصب المفعول بل يجب رفعه ، كمَا يجب تأخيره عَنْ عامله ، وَلاَ يجوز تقديمه عَلَيْهِ مطلقاً ، وكذلك يرى الرضي : أننا لو قلنا : إذا جاء الفاعل عَلَى صورة المفعول بِهِ – أيْ في حالة التمييز – فإننا نتمكن أن نعطي الفاعل في هَذِهِ الصورة الأحكام الَّتِي يختص بها المفعول ، قياساً عَلَى المفعول بِهِ الَّذِي صار نائباً عَنْ الفاعل فاختص بأحكام الفاعل ، وتجرد عَنْ أحكام المفعول بِهِ .
إذا فالرضي يرجح رأي الكوفيين في جواز تقديم التمييز عَلَى العامل إذا كَانَ متصرفاً ، وَيُخَالِف مَذْهَب البصريين .

[١٢٢] الإنصاف ٨٣١/٢- ٨٣٢ .
[١٢٣] الآية ١٢ مِنْ سورة القمر .
[١٢٤] الرضي : شرح الكافية ٢٢٢/١ .

الخاتمة

في موجز أوجه الخلاف الكوفي للنحو البصري .

١_ البصريون : اعتمدوا العقل أكْثر مِن النقل .

والكوفيون : اعتمدوا الرواية أكْثر مِن العقل .

٢_ البصريون : تأثروا بمنهج الفلاسفة وأهل المنطق .

والكوفيون : تأثروا بمنهج القراء وَالمُحَدِّثِينَ .

٣_ البصريون : لا يلتفتون إلى كل مسموع ، بل يختارون مَا كثر لبناء القاعدة ، ويحكمون عَلَى القليل بالندرة والضرورة والشُّذُوْذ .

والكوفيون: يحترمون كل مَا سمع مِن العرب، ولو كانت أعرابية رعناء، ويخضعون أصولهم لكل مسموع .

٤_ البصريون : يكثرون مِن التأويل والتقدير .

والكوفيون : لا يلجؤون إلى ذَلِكَ إلا قليلاً ، لمسايرة منهجهم في الاعتماد عَلَى النقل أكْثر مِنْ اعتمادهم عَلَى العقل .

٥- البصريون : يعتقدون أن اللغة منطقية لا تحيد في قوانينهم عَن الحكمة .

والكوفيون : لا يؤمنون بِهَذَا المبدأ .

٦_ البصريون : قَدْ يخطئون بعض العرب في لغتهم .

والكوفيون : لا يخطئون أحداً مِن العرب .

٧_ البصريون : يأخذون بالقياس عَلَى مَا سمع بكثرة .

والكوفيون : لا يلجؤون إلى القياس إلا إذا فقد السماع .[١٢٥]

المصادر و المراجع

١- أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة – أحْمَد مكي الأنصاري – القاهرة –١٣٨٤هـ ، ١٩٦٤م.

٢- إعراب القرآن / أبو جعفر النحاس . مطبعة العاني – بغداد ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م .

٣- الأنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين / لأَبي البركات الأنباري . تحقيق / محي الدين عَبْد الحميد . دار الفكر .

٤- البحر المحيط ، المسمى التفسير الكبير لأَبي حيان . مطابع النصر الحديثة – الرياض .

٥- تاريخ الأدب العربي / كارل بروكلمان . تَرْجَمَة : د. عَبْد الحميد النجار .

٦- الجنى الداني في حروف المعاني / حسن بن أم قاسم المرادي . تحقيق : د. طه محسن . مطابع جامعة الموصل – الموصل ١٣٩٦هـ – ١٩٧٦م . وتحقيق د. فخر الدين قباوة وَمُحَمَّد نديم فاضل . دار الآفاق الجديدة / بيروت .

٧- حاشية الخضري عَلَى شرح ابن عقيل / مُحَمَّد الخضري . مطبعة عيسى البابي .

٨- حاشية الصبان عَلَى شرح الأشموني / مُحَمَّد بن عَلِيّ الصبان . مطبوعة بأسفل شرح الأشموني – مطبعة عيسى البابي ١٣٥٩هـ – ١٩٣٩م .

[١٢٥] أبو زكريا الفرّاء / د. أحْمَد مكي الانصاري ٣٥٨- ٣٥٩ .

٩- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب / عَبْد القادر بن عُمَر البَغْدَادِيّ ١٠٩٣هـ . مصور مكتبة المثنى / بغداد عَنْ مطبعة بولاق ١٢٩٩ هـ .
١٠- الخصائص / ابن جني . تحقيق : مُحَمَّد عَلِيّ النجار . دار الكتاب العربي – بيروت .
١١- الدرر اللوامع- على همع الهوامع/ احمد بن الأمين الشنقيطي/ دار المعرفة/ بيروت-لبنان /ط٢/١٣٩٣هـ -١٩٧٧م .
١٢- دروس في المذاهب النحوية / د. عبده الراجحي . دار النهضة العربية – بيروت ١٩٨٠م.
١٣- ديوان الفرزدق / الصاوي . ١٣٥٤هـ .
١٤- شرح ابن عقيل / بهاء الدين عَبْد الله بن عقيل الهمداني المصري . مطبعة عيسى البابي .
١٥- شرح التصريح عَلَى التوضيح / خالد بن عَبْد الله الأزهري – القاهرة – دار إحياء الكُتُب العربية .
١٦- شرح جمل الزجاجي / ابن عصفور الأشبيلي . تحقيق : د. صاحب أبو جناح . ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م .
١٧- شرح الرضي عَلَى الكافية. رضي الدين مُحَمَّد بن الحسن الإستربادي. دارالكتب العلمية- بيروت .
١٨- شرح المفصل / ابن يعيش . عالم الكُتُب – بيروت . مكتب المثنى – بغداد .
١٩- الكتاب / سيبويه . تحقيق : عَبْد السلام هارون عالم الكُتُب / بيروت . و ط / بولاق .
٢٠- الكوفيون في النحو والصرف والمنهج الوصفي المعاصر / د. عَبْد الفتاح الحموز دار عمار – الأردن – عمان- ط١ ١٤١٨هـ _ ١٩٩٧م .
٢١- اللمع في العربية . ابن جني . تحقيق د. حسين مُحَمَّد مُحَمَّد شرف . الطبعة الأولى _ عالم الفكر _ القاهرة ١٣٩٩هـ _ ١٩٧٩م .
٢٢- مجالس ثعلب / أبو العباس أحْمَد بن يَحْيَى بن ثعلب . تحقيق عَبْد السلام هارون . النشرة الثانية / دار المعارف / مصر ١٣٧٥هـ _ ١٩٥٦م .
٢٣- مجالس العُلَمَاء / أبو القاسم عَبْد الرحمن بن إسحاق الزجاجي . تحقيق : عَبْد السلام هارون . طبع في الكويت _ سنة ١٩٤٢ م . سلسلة التراث العربي _ تصدرها وزارة الأوقاف والأنباء في الكويت .
٢٤- المدارس النحوية / د. شوقي ضيف . الطبعة الثالثة ، دار المعارف / مصر .
٢٥- مدرسة الكوفة ومنهجها في اللغة والنحو . د. مهدي المخزومي . الطبعة الثانية _ ١٣٧٧هـ _ ١٩٥٨م مطبعة مصطفي البابي .
٢٦- مراتب النحويين. أبو الطيب اللغوي . تحقيق مُحَمَّد أبو الفضل إبْرَاهيم .دار نهضة مصر /القاهرة.
٢٧- معجم البلدان / ياقوت الحموي . دار صادر _ بيروت .
٢٨- مغني اللبيب / لابن هشام . مطبعة عيسى البابي . وتحقيق د. مازن المبارك وَمُحَمَّد عَلِيّ حمد الله . دار الفكر / ط٣ بيروت / ١٩٧٢م .
٢٩- المقتضب / لأَبي العباس المبرد – تحقيق : مُحَمَّد عَبْد الخالق عضيمة . عالم الكُتُب _ بيروت .
٣٠- المهذب في القراءات العشر/ مُحَمَّد مُحَمَّد مُحَمَّد سالم. مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٨٩هـ – ١٩٦٩م .
٣١- نشأة النحو / الشَّيْخ مُحَمَّد الطنطاوي . دار المعارف – مصر – الطبعة الخامسة ١٩٧٣م .
٣٢- همع الهوامع شرح جمع الجوامع . جلال الدين عَبْد الرحمن السيوطي/دار المعرفة/بيروت-لبنان .